الوحدة العربية ومعركة تحرير فلسطين

[محاضرة القيت في نادي المحامين في عمّان (الاردن) يوم ١٠ آذار (مارس) ١٩٧٠ .]

(١)

منذ أن اغتصب الصهاينة جزءا من الارض العربية في فلسطين سنة ١٩٤٨، رفع في الوطن العربي شعار يقول " ان الوحدة هي الطريق الى تحرير فلسطين " ، على أساس من القول بأن دولة الوحدة هي القادرة- وحدها- على أن توفر المتطلبات المادية والبشرية والاستراتيجبة الكافية لتصفية دولة اسرائيل في معركة قصيرة تضع فيها العالم أمام الامر الواقع . وكان لا بد من أن تتحرر الدولة العربية أولا حتى تقيم الوحدة فتحرر فلسطين . وهكذا كانت هزيمة ١٩٤٨، التي عرفت باسم " النكبة " محركا أول لقوى التحرر العربي التي استطاعت خلال العشر سنوات " التالية " أن تجلي الجيوش المحتلة عن كثير من أجزاء الوطن العربي . ومع كل خطوة تحررية كان يبدو كما لو كان موعد الوحدة قريبا، وان الارض المغتصبة من فلسطين في طريقها الى الحرية. وبلغ التفاؤل ببعض العرب حد دراسة تفاصيل الوحدة التي هي الطريق الى تحرير فلسطين فقيل انها تلك التي تقوم فيما بين الدول العربية المحيطة بالارض المحتلة واسموها " دولة الوحدة الطوق ". وظل ذاك الشعار سائدا الى أن تحققت الوحدة بين مصر وسورية سنة ١٩٥٨.. وا نتظرت الجماهير العربية في كل مكان أن توفي دولة الوحدة بمسؤولياتها فتكمل الطوق أو تحرر فلسطين . وطال الانتظار الى أن وقع الانفصال سنة ١٩٦١. وقع سهلاً بدون مقاومة. وقبل سريعا بدون انتظار. وثبت من كل هذا أن الامل الذي عقد على وحدة ١٩٥٨ في تحرير فلسطين كان أملاً غير واقعي ومتسرعاً معاً ، إذ أن وحدة ١٩٥٨ لم تفشل في تحرير فلسطين فحسب، بل فشلت حتى في الحفاظ على وجودها. ومنذ سنة ١٩٦١ التقت اغلب القوى في الوطن العربي ، وفي العالم، على محاولة دفن قضية الوحدة وقضية تحرير فلسطين معا تحت ركام من الصراعات الدولية والاقليمية. الى أن جاء حزيران (يونيو) ١٩٦٧ فاذا بالقدر الاكبر من القوة العربية يقاتل متراجعا في صحراء سيناء بينما كان قد تقدم اليها دفاعا عن دمشق .

وكان ما كان .

وكان طبيعيا أن تعصف هزيمة حزيران (يونيو) بكثير مما كان سائدا في الوطن العربي من افكار واتجاهات، وأن تثير الشك في مبررات وجود كثير مما كان موجودا من قوى ونظم ، وأن تشيع اضطرابا شديدا في المقدرة على رؤية المستقبل الذي كان يبدو- حينئذ- حالك السواد . غير اننا الآن . وبعد ما يقارب ثلاث سنوات من الهزيمة نستطيع أن نرى بوضوح أن ليس كل ما كان في حزيران (يونيو) سنة ١٩٦٧ كان سيئاً.

لقد كان اسوأ ما فيه ان الامة العربية، ذلك الطرف الاصيل الذي لم يكن ممثلا في المعركة، قد دفعت من ارضها، وابنائها، وكرامتها، ثمنا فادحا لاخطاء القوى الاقليمية. غير انه في مقابل هذا كشفت الهزيمة العاجلة للدول العربية عن عجزها الذي لا مفر منه عن تحرير فلسطين . وأدى هذا الى أن دخلت الجماهير العربية ساحة المعركة في يومي ٩ و ١٠ حزيران (يونيو) سنة ١٩٦٧ لتفرض الصمود أولا . ثم لتستمر في القتال بعد هذا في شكل منظمات جماهيرية مسلحة. وهذا كسب لا شك فيه . فلأول مرة في التاريخ المعاصر توجد في الأرض العربية قوة مقاتلة لا تحمل هوية أية دولة عربية .

(٢)

هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى انهار الركام الذي حاولت قوى كثيرة أن تدفن تحته قضية تحرير فلسطين . لم يعد أحد يذكر الاسباب التي كانت ذرائع القتال في حزيران (يونيو) سنة ١٩٦٧ ، ونسي الناس خليج العقبة وحق المرور فيه ، وتجاوزت المعركة إزالة آثار العدوان ، وفرض على الدول العربية ألا تسترد أرضها إلى أن تحدد لها موقفاً صريحاً من تحرير فلسطين . وهكذا برغم كل شيء ، برغم المناورات ، وبرغم التآمر ، وجد جميع الأطراف أنفسهم وجهاً لوجه أمام حقيقة المعركة : أما الوجود العربي وأما الوجود الاسرائيلي في فلسطين ، وهو كسب لاشك فيه . كسب من حيث اننا قد عرفنا ، ولو بعد دفع ثمن فادح للمعرفة ، أن أحداً في الوطن العربي لايستطيع ان يزعم لنفسه الحرية قبل أن تتحرر فلسطين ، أو أن يحلم أحلام الرخاء في جوار الوجود الاسرائيلي في فلسطين.

وعندما فرضت معركة تحرير فلسطين ذاتها على الناس ، عاد الحديث عن علاقة الوحدة بتحرير فلسطين . ورفع في الساحة شعار مختلف يقول : " ان تحرير فلسطين هو

الطريق الى الوحدة العربية وليست الوحدة العربية هي الطريق الى تحرير فلسطين " وزاد أصحابه فأسموه " استراتيجية " .

وهو قول غير واقعي ، ومتسرع معاً .

أما انه غير واقعي فلأن القوى المعادية هي التي بدأت معركة احتلال جزء من الارض العربية في فلسطين سنة ١٩٤٨ وفي غيبة دولة الوحدة . وهي التي بدأت معركة تأمين الوجود الاسرا ئيلي سنة ١٩٥٦ وفي غيبة دولة الوحدة . ثم انها هي التي بدأت معركة فرض الاعتراف بدولة اسرائيل سنة ١٩٦٧ وفي غيبة دولة الوحدة أيضا . فحتى لو كانت هزيمة الدول العربية في حزيران (يونيو) سنة ١٩٦٧، ورفض الجماهير العربية للهزيمة واستمرارها في القتال ، قد حول المعركة مما أراد بها الصهاينة الى معركة لتحرير فلسطين ، فإن هذا لا يغيَر شيئا من حقيقة ان العدو هو الذي اختار وحدد تاريخ المعركة، وفرضها في الوقت الذي ا ختاره وحدده . وعلى هذا يمكن القول بأن القوى المعادية قد استعجلت معاركها سنة ١٩٤٨، وسنة ١٩٥٦، وسنة ١٩٦٧ لتثبيت الوجود الاسرائيلي "داخل حدود آمنة ومعترف بها" في غيبة دولة الوحدة لان تلك القوى تعرف ان الوحدة العربية هي الطريق الموثوق الى تصفية الوجود الاسرائيلي وتحرير فلسطين ، وان غيبة دولة الوحدة تقدم لها اكثر الظروف ملاءمة لتحقيق غاياتها العدوانية.

ان هذا يبدو لنا اكثر اتفاقا، واتساقا ، مع الواقع الذي نعرفه، من الزعم الذي يوحي بان القوى العربية، أو أية قوة عربية، هي التي اختارت أن تبدأ وتخوض المعركة القائمة من أجل تحرير فلسطين وفي غيبة دولة الوحدة تنفيذا " لاستراتيجية " أعدت من قبل على أساس ان " تحرير فلسطين هو الطريق الى الوحدة العربية وليست الوحدة العربية هي الطريق الى تحرير فلسطين ".

وهو قول متسرع ، لان اصحابه لم يصبروا على انفسهم ، ولا على الظروف حتى يتبينوا : اولا- ما اذا كان النضال القائم في سبيل تحرير فلسطين سيحقق غايته في غيبة دولة الوحدة أم أن، تطورات المعركة . المسلم بأنها طويلة ومعقدة . وصعبة . ستضعهم – ربما أقرب بكثير مما يتصور الكثيرون – أمام خيار حيوي : فإما إقامة دولة الوحدة التي توفر لهم العمق الاستراتيجي اللازم لمواصلة القتال واما هزيمة أخرى . وحتى يتبينوا- ثانيا- ما اذا كان بعض المناضلين في سبيل تحرير فلسطين سيكفون عن القتال ليقيموا

على الأرض المتحررة دولتهم الفلسطينية المسماة "ديموقراطية " أم انهم سيواصلون القتال الى أن تقوم دولة الوحدة الديموقراطية .

ذلك لانه اذا كانت المعركة تدور الان في ظل تأييد ودعم " حلف الخرطوم " الذي ا نعقد بين الدول العربية في آب (أغسطس) ١٩٦٧ من اجل " ازالة آثار العدوان " فان هذا الحلف موقوت- على أحسن الفروض- بغايته، وعندما تنتهي مرحلة " إزاله آثار العدوان "، على أي وجه تكون نهايتها، يكون الحلف قد استنفذ اغراضه فينفض . حينئذ تبدأ " فعلا" معركة تحرير فلسطين . ولم يقل لنا أحد- بعد- كيف تستمر المعركة وقد كفت العربية ، راغبة أو كارهة ، عن دعم المعركة، واغلقت حدودها، وصفت أو حاولت تصفية قواعد المناضلين ؟ .. نقول كيف تستمر الا اذا سقطت الاقليمية العربية المتراجعة واقيمت على انقاضها دولة عربية توفر للقتال أسباب الاستمرار حتى النصر. انها عندئذ دولة الوحدة النواة أو نواة دولة الوحدة .

ومن ناحية أخرى ، لم يقل لنا أحد- بعد- كيف يكون تحرير فلسطين طريقا الى الوحدة العربية خاصة اذا كان ذلك الشعار المسمى " استراتيجية " متضمنا كهدف اقامة دولة فلسطين المسماة "ديموقراطية " كيف تكون تلك الدولة الاقليمية طريقا الى الوحدة العربية؟.. ماهي المعطيات الجديدة المتوافرة أو التي يمكن أن تتوافر لدولة فلسطين ، ولم تكن متوافرة لدول عربية كثيرة تحررت ولم تتوحد . ان كل ما نعرفه من المميزات الخاصة بدولة فلسطين المسماة " ديموقراطية " هو ان نسبة اليهود غير العرب فيها ستكون اكبر منها في أية دولة عربية أخرى . فهل يصلح هذا سببا جديدا لتكون طريقا الى الوحدة ؟.

ان هذه اسئلة لا تكفي النوايا- ولو كانت حسنة - للاجابة عليها .

أين الحقيقة اذن؟

هل ثمة علاقة بين الوحدة العربية وتحرير فلسطين ؟ وان وجدت فما هو مضمونها، واين تقع، وكيف تتجسد في هذه المرحلة التاريخية التي يمر بها النضال العربي؟

في الاجابة على هذه الاسئلة نجتهد بقدر ما يطيق هذا الحديث المحدود.

عندما يكون الحوار دائرا بلغة واحدة ثم لا ينتهي الى اتفاق فلابد من ان يكون ثمة خلاف في مضامين الكلمات التي يستعملها المتحاورون . وتكون الخطوة الاولى ان نعرف ما

يعنيه كل طرف بالكلمات التي يقولها. والحوار حول علاقة الوحدة بتحرير فلسطين يدور بين الذين لا ينكرون الوحدة ولا ينكرون تحرير فلسطين، فلا بد إذن من أن يكون ثمة خلاف بين ما يعنيه كل منهم "بالوحدة العربية " أو " بتحرير فلسطين " .

ونحن نعتقد ان مرجع الغموض وعدم التحديد في هذه العلاقة الى الذين يتحدثون عن الوحدة العربية او انهم هم المسؤولون عن القدر الاكبر منه. ولولا هذا لما رأينا ان كل الناس- فيما يقولون- راغبون في الوحدة العربية ومن دعاتها ، ومع ذلك ما تزال الوحدة ابعد الاهداف العربية عن التحقق . بل ان اغلب الناس لا يعرفون كيف تتحقق وما هو الطريق اليها، ولو عرفوا لعرفوا موقع تحرير فلسطين من هذا الطريق .

وآية هذا ان كثيرين اولئك الذين يتحدثون أو يكتبون عن الامة العربية. وعن القومية العربية . وعن الوحدة .. الخ . حديثا يبدو كالمناجاة الذاتية. ويعز معه الحوار. لا ننا لا نستطيع أن نعرف مما يقولون كيف عرفوا ما يتحدثون فيه الا ان يكون عن طريق شعورهم بالانتماء القومي اي حالتهم النفسية. والشعور بالانتماء القومي دلالة صحيحة على وجود امة ينتمي اليها المتحدث، ولكنة لا يصلح منطلقا الى تحديد اهداف المستقبل ونحن نعرف هذا - مثلا من قول مطروح ومتردد في الادب القومي العربي، في كل الادب القومي العربي تقريبا كما لو كان بديهيا . ذلك هو القول باننا ما دمنا امة عربية واحدة " فيجب " ان تكون لنا دولة سياسية واحدة . او اننا ما دمنا امة عربية واحدة " فيجب " ان نساهم جميعا في تحرير فلسطين . والشعور بالانتماء القومي يبرر اننا امة عربية واحدة ، اما لماذا " تخب " ما بعد هذا فلا جواب . او ان ثمة اجابات غير وافية. او اجابات غير صحيحة وان كانت هي ذاتها غير مبررة قوميا . مثل تلك الاجابة التي تقول " تخب " ان تقوم الوحدة لانها الطريق الى تحرير فلسطين، لان دولة الوحدة - وحدها هي القادرة على توفير المتطلبات اللازمة لتحقيق نصر عسكري ضد الصهيونية . وهو قول صحيح . ولكن المسألة هي كيف عرفنا انه صحيح . ان كنا عرفناه عن طريق ممارسة القتال الفاشل عشرين عاما ضد اسرائيل ، فان هذا يبرر قيام الوحدة ، في الحدود والى المدى ، وبقدر ما توفر لنا اسباب التفوق العسكري لهزيمة اسرائيل ، لا اكثر . ثم تنفض الوحدة بعد ان تكون قد ادت مهمتها. وفي هذه الحالة . تكون الوحدة غير لازمة بالنسبة الى الدول التي لا تحيط باسرائيل ، بل وتكون الوحدة العسكرية"بين الدول التي تحيط بها بديلا صالحا من الوحدة السياسية لانها توفر المتطلبات اللازمة للتفوق العسكري او يمكن ان توفرها.. بل نزيد

فنقول ان الوحدة العسكرية لا تكون لازمة لو احسنت بعض الدول العربية استخدام امكانياتها المتاحة ماديا وبشريا . اذ لو احسنت لكانت قادرة على هزيمة اسرائيل . وفي كل الاحوال ستكون علاقة الوحدة بتحرير فلسطين موضوعا من "صلاحية" العسكريين، قادة المعركة، الذين يقررون مضمون تلك العلاقة، واين تقع، وكيف تتجسد طبقا لتطورات استراتيجية او تكتيك القتال ضد اسرائيل .

اما اذا كنا قد عرفنا ان "الوحدة العربية" لازمة لتحرير فلسطين عن طريق البحث العلمي في تلك الظاهرة الاجتماعية التي تسمى " امة " واكتشاف العلاقة الموضوعية بين الوجود القومي والوحدة القومية. فان الوحدة تكون لازمة لزوما موضوعيا . فنلتزمها غاية في معركة تحرير فلسطين، وفي غير معركة تحرير فلسطين، ولا نعفي منها احدا مهما يكن بعيدا عن ساحة معركة فلسطين، ولا نتراجع عنها حتى بعد ان تتحرر فلسطين .

هنا يكون موقفنا من الوحدة وتحرير فلسطين موقفاً عقائدياً، وليس موقفا انتهازيا.

(٣)

والموقف العقائدي القومي يقوم- باختصار- على خمسة اسس متكاملة : -

اولا : ان الامة جماعة بشرية تكونت تاريخيا من جماعات وشعوب كانت مختلفة لغة وتراثا ومصالح ومتصارعة ومتفاعلة خلال ذاك الصراع ، انتهت بعد مرحلة تاريخية طويلة من المعاناة الى ان تلتحم لتكون شعبا واحدا ذا لغة مشتركة وتراث مشترك ومصالح مشتركة. وهذا لا خلاف عليه. انما الخلاف حول الارض الخاصة والمشتركة كعنصر من عناصر التكوين القومي . ونحن نرى أن الاختصاص برقعة مشتركة من الارض هو العنصر الجوهري المميز للأمة. ذلك لان كافة العناصر الاخرى مثل وحدة اللغة التي تركز عليها النظرية الالمانية، ووحدة المصالح الاقتصادية التي تركز عليها النظرية الماركسية. أو وحدة الثقافة التي تشيد بها الكتابات العربية ، أو حتى وحدة الارادة التي تركز عليها النظرية الفرنسية... الخ . كل هذه عناصر ممكن أن تتوافر، وان تجتمع لجماعات بشرية لا ترقى الى مستوى " الامة " كالمجتمعات القبلية مثلا. انما تجاوزت المجتمعات الطور القبلي ودخلت طور التكوين القومي بالاستقرار على أرض معينة، ثم اكتملت تكوينا باختصاصها بتلك الارض المشتركة، وبهذا اصبحت أمة.

ثانيا: يترتب على هذا ان الامة تكوين واحد من الناس (الشعب) والارض (الوطن) معا. فنحن عندما نقول ا ننا أمة عربية ثم نتحدث عن الوطن العربي لا يكون حديثنا عن شيئين منفصلين بل عن الكل (الامة) الذي يتضمن الجزء (الوطن) . فالشعب العربي (الناس) والوطن العربي (الارض) يكونان معا الامة العربية، التي ما تحولت من شعوب لا تختص شعبا بعينه الى أمة الا عندما التحم الشعب العربي بالوطن العربي واختص به ليكونا وجودا اجتماعيا واحدا هو الامة العربية . من هنا ندرك انه عندما يتعرض الوطن العربي كله أو بعضه، للابادة أو الطرد من أرضه، وعندما يتعرض الوطن العربي كله أو بعضه للغزو الاستيطاني أو الاقتطاع أي عندما تقوم أية محاولة لفصل الناس (الشعب) عن الارض (الوطن) لا تكون بصدد خطر يتهدد بعض أبناء الشسعب العربى يمكن تعويضهم عنه أرضا بأرض، ولا بصدد خطر يتهدد جزءا من الوطن العربي يمكن الاستغناء عنه أو المساومة عليه، بل نكون بصدد خطر يتهدد الوجود القومي العربي ذاته.

وهكذا تقدم لنا القومية أول ضوابط الموقف العقائدي من الغزو الصهيوني لفلسطين .

ثالثا: ثم انه لما كانت الامة تكوينا تاريخيا فان اشتراك الشعب في الوطن هي مشاركة تاريخية تحول من ناحية دون الشعب وأن يتصرف في وطنه أو جزء منه في أية مرحلة تاريخية معينة لأن الوطن شركة تاريخية بين الاجيال المتعاقبة. وتحول من ناحية أخرى دون أي جزء من الشعب وان " يتصرف " في الاقليم الذي يعيش عليه أو في جزء منه بالتنازل عنه للغير أو تمكين الغير من الاستيلاء عليه (علاقة خارجية) وتحول من ناحية ثالثة دون أي جزء من الشعب وأن يستأثر بأي اقليم عن بقية الشعب (علاقة داخلية) .

ومن هنا نصل الى عدة نتائج هامة وملزمة قوميا.

اولها : ان فلسطين كجزء من الوطن العربي اقليم مملوك ملكية مشتركة للشعب العربي كله وليس ملكا خاصا لشعب فلسطين .

ثانيها: ان الشعب العربي كله، ومن باب اولى شعب فلسطين وحده ، لا يملك الحق في التنازل ، أو التفريط ، أو المساومة، على حرية فلسطين .

ثالثها: ان مسؤولية تحرير فلسطين واقعة على الشعب العربي كله وليس على شعب فلسطين وحده.

رابعا: ان كل الاتفاقات ، أو المعاهدات أوالقرارات ، والدساتير، والقوا نين ، والمواقف ، والتصريحا ت ، سواء كانت صادرة من دول اجنبية أو دول عربية، في الماضي أوالآن أو في المستقبل، تمس حرية فلسطين، غير مشروعة قوميا، فهي ليست حجة على الامة العربية ولا قيدا على حقها في تحرير فلسطين .

را بعا: ان الامة كتكوين تاريخي لم تتكون اعتباطا أو مصادفة بل تكونت من خلال بحث الناس عن حياة افضل . فاذا كنا قد بلغنا خلال المعاناة التاريخية الطور القومي، أي ما دمنا أمة عربية واحدة فإن هذا يعني أن تاريخنا ، الذي قد نعرف احداثه وقد لا نعرفها قد استنفذ خلال بحث اجدادنا عن حياة افضل كل امكانيات العشائر والقبائل والشعوب قبل ان تلتحم معا لتكون أمة عربية واحدة وانها عندما اكتملت تكوينا كانت بذلك دليلا موضوعياً غير قابل للنقض على ان ثمة " وحدة موضوعية" قد نعرفها وقد لا نعرفها بين كل المشكلات التي يطرحها واقعنا القومي ، أيا كان مضمونها، وانها بهذا المعنى، مشكلات قومية لا تجد حلها الصحيح الا بامكانيات قومية، وقوى عربية، في نطاق المصير القومي . قد يحاول من يشاء ان يحل مشكلاته الخاصة بامكانياته القاصرة ، ثم يقنع بما يصيب ولكنه لن يلبث ان يتبين، في المدى القصير أو الطويل، ان الحل الصحيح المتكافىء مع الامكانيات القومية المتسق مع التقدم القومي، قد اخطأه عندما اختار ان يفلت بمصيره الخاص من الوحدة الموضوعية للمشكلات التي تشكل حلولها المصير القومي الواحد .

وهكذا بينما احتاج الاقليميون الى الهزيمة المرة في حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ليتعلموا أن احدا لا يستطيع أن ينتصر في معركة التحرر ما دامت فلسطين محتلة لا يحتاج القوميون الى تجارب مريرة ليعرفوا ان أحدا لن ينتصر في معركة تحرير فلسطين ما دام للاستعمار قدم وقاعدة في الوطن العربي ، وان فلسطين لن تتحرر بغير امكانيات قومية ، وقوى قومية ، في نطاق معركة التحرر العربي واطار المصير القومي .

خامسا: واخيرا، فان هذه الوحدة الموضوعية بين المشكلات التي يطرحها الواقع القومي بما نعنيه من أن حلولها الصحيحة المتكافئة مع المقدرة القومية غير قابله للتحقق الا بامكانيات وقوى قومية في اطار المصير القومي ، تفرض الوحدة العربية كأداة يستحيل

بدونها وضع كل الامكانيات والقوى القومية ، وا ستعمالها، في سبيل حل كل المشكلات العربية، وتحقيق المصير العربي الواحد. ان هذا لا يعني أن الاقليميين ودولهم عاجزون تماما عن تحقيق أي نجاح في مواجهة- المشكلات التي يتصدون لها، بل يعني تماما انهم لا ينجحون الا مؤقتاً وانهم لن يلبثوا أن يتبينوا، في المدى القصير أو الطويل ، ان الوحدة لازمة لاطراد النجاح أو الحفاظ عليه .

وهكذا نعرف من الان . ان فلسطين لن تتحرر في غيبة دولة الوحدة ، وانها حتى لو تحررت لن تستطيع أن تحافظ على تحررها الا في ظل دولة الوحدة . كيف اذن فشلت وحدة ١٩٥٨ في تحرير فلسطين؟.. لأسباب بسيطة. لانها كانت استجابة قومية ولكنها لم تكن وحدة قومية فشلت في أن تنحول الى وحدة قومية. كانت اشتراكا بين اقليمين في الرئاسة وفي الحكومة، وبقي الاقليمان منفصلين جماهيريا واقتصاديا، وماليا، وعسكريا فلم تكن تجسيدا لوحدة المصير داخلها. ثم انها اقتنعت بالاقليمين وتوقفت عن الامتداد ، فارتضت التجزئة ولم تجد وحدة المصير خارجها وهكذا انقلبت الى دولة اقليمية في اقليمين ، بدلا من أن تكون دولة الوحدة النواة ففقدت أساسها العقائدي ومضمونها القومي ، ففشلت .

(٤)

الى هنا نكون قد عرفنا الموقف القومي العقائدي من الوحدة . وعلاقتها بتحرير فلسطين . غير ان هذا لا يكفي، لان الموقف القومي العقائدي تعبير سلبي في مواجهة الواقع ، ويبقى ان نعرف كيف يحدد قوانا . ويضبط حركتها الاتخابية، اي كيف تتحول القومية من وعي على الواقع الى حركة لتغيير الواقع واين تقع العلاقة بين تحرير فلسطين والوحدة العربية في تلك " الحركة " .

وارجو الا يكون غائبا عنا ان حقيقة المشكلة التي نعالجها آخذة في الوضوح خلال الحوار فنحن الآن لسنا أمام القضية الشكلية الأولى : ايهما الطريق الى الآخر، الوحدة أم تحرير فلسطين ، بل نحن أمام الحقيقة الموضوعية لتلك القضية، علاقة النضال من اجل الوحدة بالنضال من اجل تحرير فلسطين .

ولما كانت الحركة النضالية، اية حركة لتغيير الواقع تتضمن خمسة عناصر هي : المنطلق والغاية، والقوى ، والاستراتيجية، والتكتيك ، فسنرى فيما يلي - باختصار شديد

–   كيف تحدد لنا القومية العناصر الخمسة للحركة القومية وموقع معركة تحرير فلسطين منها .

(١) اما عن المنطلق فهو محدد بالوجود القومي ذاته ، بالامة كواقع موضوعي، وبواقع الامة في مرحلة الانطلاق . وفي الواقع العربي وقائع كثيرة اولها اننا امة واحدة ولكن مجزأة وان فلسطين جزء من الامة العربية ولكن مغتصبة ، من هنا تكون البداية .

(٢) اما عن الغاية فهي محددة بوحدة الوجود القومي التي تعني اختصاص الشعب العربي كله بالوطن العربي كله، فما يتفق مع تلك الوحدة يبقى وما لا يتفق معها تخب ان يزول . ولما كانت الصهيونية تغتصب جزءاً من الوطن العربي وكانت كل دولة عربية تستأثر بجزء من ذلك الوطن . وكان هذا وذاك لا يتفقان مع وحدة الوجود القومي، فان غاية النضال القومي تكون استرداد الارض العربية من غاصبيها، والغاء تجزئتها واقامة دولة عربية واحدة عليها، بما فيها فلسطين.

(٣) أما عن القوى فمحددة بوحدة المصير القومي. ولما كانت وحدة المصير القومي تعني ان الحل الصحيح لا يمكن ان يتحقق الا بامكانيات قومية وقوى قومية . فان القوى المناضلة من اجل الوحدة لن تكون قادرة على النصر النهائي الا اذا كانت قوى قومية . اي الا اذا كانت مجسدة في ذاتها هدف الوحدة. وهي لا تكون كذلك اذا قبلت التجزئة الاقليمية فيها، اي اذا قبلت ان تكون قوى اقليمية ولو كانت متحالفة.

وهكذا تكون وحدة القوى القومية شاملة المناضلين في معركة فلسطين ، ولكنها تنفي تجزئة القوى الى قوى قومية وقوى فلسطينية.

(٤) اما عن الاستراتيجية فهي محددة بالوحدة الموضوعية للمشكلات التي يطرحها الواقع القومي فلا بد من ان تكون استراتيجية واحدة تصل بين الواقع القومي والمصير القومي . ولما كانت الوحدة العربية الشاملة لا تقوم الا بعد التحرر الكامل لكل اجزاء الوطن العربي فان التحرر يشكل المرحلة الاولى من استراتيجية النضال من اجل الوحدة . وهي استراتيجية ملزمة للمناضلين في كل جزء: التحرر كمرحلة اولى من نضال غايته الوحدة . وهكذا تدخل معركة تحرير فلسطين في نطاق المرحلة الاستراتيجية الاولى من النضال القومي من اجل الوحدة العربية : مرحلة التحرر. ويصبح القول بان تحرر فلسطين هو

الطريق الى الوحدة . بشرط ان نفهمه على ا نه طريق دخول "فلسطين" الى دولة الوحدة العربية .

ومن ناحية أخرى فان وحدة الاستراتيجية تعني انه كلما انتصرت القوى القومية في ساحة معركة القت بقوتها في الساحات الاخرى الى ان تتحقق الوحدة العربية الشاملة . وهكذا يكون النضال القومي ملتزماً بسحق الاقليمية وإلغاء التجزئة في الأجزاء المتحررة وإقامة دولة الوحدة النواة ثم الدخول بها معارك تحرير وتوحيد باقي الأجزاء وتضاعف المقدرة على النصر – هنا – لاشك فيه ، ولكنه ليس مصدر الالتزام بتحقيق الوحدة النواة والدخول بها معركة التحرير ، بل مصدره الموقف القومي العقائدي . وعلى هذا يصح القول بان الوحدة هي الطريق الى تحرير فلسطين بشرط ان نفهمه على انه طريق الوحدة النواة الى الوحدة الشاملة.

(٥) أما عن التكتيك فلا يتوقف على القوى القومية ، ولكن على ظروف المعارك، وقوى الاعداء، واساليبهم ، وغايتهم : والقوى القومية مطالبة في هذا بان تلتزم الاسلوب العلمي في المواقع التكتيكية لهزيمة القوى المعادية . ولكن – وهذا بالغ الاهمية والخطورة – في نطاق الالتزام الاستراتيجي أي الا تترك للقوى المعادية فرصة استدراجها من خلال المناورات التكتيكية الى خارج خطها الاستراتيجي ، أو ان تندفع الى قبول أي نصر تكتيكي يكون على حساب الغاية الاستراتيجية . وهكذا لا تخوز ان نتنازل ، أو نتراجع عن هدف الوحدة العربية من اجل النصر التكتيكي في أية معركة ولو كانت معركة تحرير فلسطين .

وهكذا يستقيم لنا – كما ارجو – فهم العلاقة بين الوحدة وتحرير فلسطين في هذه المرحلة، على وجه يمكن تلخيصه في جملة قصيرة :– التحام القوى القومية في قوة مناضلة واحدة تخوض معركة تحرير فلسطين وتفرض الوحدة في الاجزاء المتحررة ثم تدخل بها المعركة لتأمين النصر النهائي في معركة تحرير فلسطين حتى تستطيع ان تكسب فلسطين لدولة الوحدة .

فهل هي علاقة صحيحة ؟

هنا يأتي دور الممارسة لتكون محكا لاختبار صحة المعرفة العلمية.

فماذا تثبت الممارسة؟

(٥)

أما على الجانب العربي فلم يكف أي قادر على الكلام ، منذ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ عن القول بان معركة تحرير فلسطين معركة عربية، وان مسؤولية تحرير فلسطين تقع على الامة العربية كلها، وان التعامل مع " الواقع الملموس "- كما قالت إحدى النشرات الصادرة من الجبهة الشعبية اثبتت انه: " من الواضح ان النضال من اجل تحرير فلسطين ليس مهمة الشعب الفلسطيني وحده بل مهمة الشعوب العربية كلها وان ا نجاز هدف التحرير وتصفية الكيان الاسرائيلي لا يمكن أن يكون الا حصيلة نضال الشعوب العربية كلها في حرب شعبية طويلة الامد ضد الامبريالية والصهيونية على امتداد الارض العربية " . وانه ما لم تتم تعبئة طاقات الجماهير العربية كلها فان سحق العدوان الاسرائيلي وتدمير جذوره يبقى حلما غير قابل للتحقيق (الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين- حركة المقاومة الفلسطينية في واقعها (الراهن).... كلهم كل المساهمين في المعركة، قادة، وقواعد، وحكومات لا يكفون عن الاستغاثة بالمائة مليون عربي، وتحميلهم مسؤولية معركة التحرير التي لا يمكن أن يتم النصر فيها بغير قوة الجماهير العربية. حتى الاقليمية الفلسطينية تدعو الجماهير العربية الى ان تحشد نفسها في جبهة مساندة .

اذن " فالواقع الملموس " قد اثبت ان النصر لا يتم الا بالتحام الجماهير العربية وفاء لمسؤولياتها عن تحرير فلسطين . وهو صحيح .

ولكن الذين يستغيثون بالامة العربية، وبالمائه مليون عربي . ويحملونهم مسؤولية تحرير فلسطين لم يقولوا شيئا عن حقوق المائة مليون عربي في فلسطين (المتحررة) أو في ازالة آثار العدوان . لم يقل أحد كلمة وا حدة اجابة عن السؤال الذي يهم الجماهير العربية : لماذا يموتون من اجل تحرير فلسطين؟ اليست المسؤولية هي الوجه الاخر للحق؟ فاين حق الامة العربية في فلسطين، وكيف يتجسد؟ ان من اغرب ما قرأنا في هذا ما قاله اولئك الذين اصدروا نداءهم المنشور عن حلم التحرير الذي لا يتحقق الا بنضال الشعوب العربية تبريرا لدخول الجماهير معركة التحرير. قالوا: لان الجماهير الكادحة لا تملك شيئا تخسره . كأن الجماهير الكادحة لا تملك الحياة . مع انها تملك مع الحياة أمل الوحدة والتقدم . ويستغيثون بالجماهير العربية دفاعا عن الكرامة العربية. والكرامة العربية عزيزة

وتستحق القتال دفاعا عنها . ولكنها ليست كلمة فارغة. انها تعني حياة كريمة مطهرة من المذلة ولا بريد احد أن " يعد " الجماهير العربية حتى بالحياة الكريمة المطهرة من المذلة ولو بعد التحرير، ربما لأنهم يعرفون أن ذلك لا يتحقق الا في دولة الوحدة العربية وهم لا يريدون أن يلتزموا بوعد الوحدة بعد التحرير. ان الجماهير العربية ليست بلهاء وقد كان لها في حزيران (يونيو) ١٩٦٧ عبرة لا تنسى، فاذا كان أحد يظن انها ستقاتل حتى الموت الى ان تتحرر فلسطين لمجرد أن يعود الامر في الوطن العربي الى ما كان عليه قبل حزيران (يونيو) ١٩٦٧ فسيتعلم ان الغباء لا ينفع صاحبه ابدا . والغباء وباء في الاقليمية العربية . بدليل انهم ما زالوا يتصرفون على أمل ان كل شيء سيبقى كما كان . بل ان منهم من هو مشغول عن المعركة بمخططات التوسع بعد المعركة فهو يدخر قواه ليبني في الارض العربية امبراطوريته الخاصة. وكل هذه اوهام . لا يساويها وهما الا توقع استجابة الجماهير العربية لدعوة الالتحام من اجل الموت لا شيء اكثر، واستنفارها بالحديث عن المسؤولية بدون التزام بحقها في الارض العربية ولما كان هذا الالتحام لا يتم الا على هدف الوحدة فان هذا " الواقع الملموس " يقدم دليلاً من الممارسة على ان النصر لا يتم الا بالتحام تحرير فلسطين بالوحدة العربية .

اما عن الجانب الآخر، جانب القوى المعادية فان الامر اكثر وضوحا. فهي تخوض معركتها ضد الامة العربية وليس ضد اية دولة عربية. وهذا واضح من ان الحركة الصهيونية عندما وضعت- مخططاتها لغزو الوطن العربي في مؤتمر بال سنة ١٨٩٧ لم تكن هناك اية دولة عربية قائمة لا فلسطين ولا غير فلسطين . قد تصطدم الصهيونية تكتيكياً مع دولة عربية قائمة او اخرى تبعا لما تتبينه من مخاطر مؤقتة. ولكن خطتها الاستراتيجية تستهدف اقامة دولة يهودية من الفرات الى النيل، بصرف النظر عما هو قائم على تلك الارض من دول او نظم او قوى . الغزو الصهيوني موجه اذن الى الامة العربية . فهي الطرف الاصيل في المعركة وهذا يقتضي ان تكون قواها في المعركة قوى قومية ملتحمة .

واذا كانت الحركة الصهيونية ذات اهداف محددة واستراتيجية خاصة، فان من عناصر تلك الاستراتيجية التحالف مع القوة الاستعمارية المتفوقة. تحالفت مع المانيا اولا، ثم مع بريطانيا ثانيا ثم مع الولايات المتحدة الامريكية اخيرا ، تبعا لا نتقال قيادة الاستعمار العالمي . وللاستعمار العالمي موقف عدائي لم يتغير ضد الوحدة العربية. هو

الذي صنع التجزئة ابقاء للتخلف حتى يظل مسيطرا على مقدرات الامة العربية. وهو الذي يحرس التجزئة حتى لا تقوم الوحدة . وهكذا التقت المصالح الاستعمارية مع المصالح الصهيونيه لاقامة دولة يهودية على الوطن العريي تحقق اهداف الصهيونية وتحول دون الوحدة معا .

قرأنا كلنا عن تقرير كاميل بونومان سنة ١٩٠٧ الذي انتهى الى ان حماية المصالح الاستعمارية في الوطن العربي تستلزم اقامة حاجز بشري قوي وقريب يفصل المشرق العربي عن المغرب العربي ويحول دون الوحدة العربية المتوقعة. ولقد كنت مهتما بالتعرف على هذا التقرير في مصدر رسمي تحقيقا لصحة الاشارة اليه في الكتابات الخاصة ، الى ان اطلعت على ملخص له منشور في وثيقة عربية رسمية، فاصبح حقيقة تمكن الاشارة اليها. ولكنها ليست الحقيقة الوحيدة ، فقد كان من ضمن المكاسب التي تحققت بعد هزيمة (حزيران) يونيو ١٩٦٧ ان اصبح للقضية العربية انصار من الدارسين في اوربا وخاصة من الفرنسيين . وعرفنا مما كشفوه من وثائق علاقة الغزو الصهيوني بالوحدة من هذه الوثائق ما نشره بيير ديستريا في كتابه "من السويس الى العقبة" صفحة ٥٦ نقلا عن كتاب نشر في فرنسا سنة ١٩٣٧ بعنوان " الله اكبر " الفه " محمد اسعد بك " وهو اسم مستعار لاحد عملاء الصهيونية في الوطن العربي . والكتاب عبارة عن تقرير كان مقدما الى أحد قادة الحركة الصهيونية العالمية هو المستشرق النمساوي الدكتور فولفجانج فايست . يقول كاتبه :

" ان خلاصة الاسباب الجدية للكفاح من اجل الارض المقدسة هو موقعها الاستراتيجي وتأثيره في مستقبل المنطقة. فلو عادت فلسطين الى دولة عربية موحدة تضم مصر. لقامت هناك قوة عربية مسلحة تستطيع ان تتحكم في قنال السويس والطريق الى الهند . اما اذا ظلت فلسطين مستقلة، او أصبحت دولة يهودية، فانها ستقوم عقبة في سبيل انشاء هذه الدولة الكبرى حتى لو تمت الوحدة بين دولة عربية واخرى على جانبي فلسطين . ان دولة صغيرة " حاجزة " تقوم على ١٠٠٠٠٠ كيلو متر مربع على ضفتي نهر الاردن ستحمي كل دولة عربية ضد تدخل ا ية دولة عربية اخرى ..

ان توازن القوى حول قنال السويس يتوقف اذن " على استقلال فلسطين بالنسبة الى العالم العربي، يتوقف على دولة فلسطين تكون كسويسرا عند ملتقى القارات الثلاث. ان هذا الاستقلال يتفق تماما مع طموح الاستعمار اليهودي ، ذلك لان اليهود وحدهم هم الذين

ستكون لهم مصلحة في هذا الاستقلال وليس العرب اذ ان هؤلاء سيكونون من الدعاة المتحمسين للاندماج في دولة عربية كبرى" .

" ان هذا الكلام القديم يبدو حديثا، لانه يعبر عن استراتيجية معادية وضعت قديما وما تزال تحكم تكتيك القوى المعادية. ومن حين الى اخر يعبرون عنها بوضوح وقوة. في تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٥٨ اي بعد قيام وحدة ١٩٥٨ نشرت مجلة " الاوبسر فاتوار دي مويان اوريان " مقالا بمناسبة الذكرى الثانية لحرب ١٩٥٦ قالت فيه : " ان التفوق الاسرائيلي قدم ضمانا لحماية الوضع القائم ضد المحاولات الوحدوية . لقد اصبح واضحا ان حفظ التوازن فيما بين الدول العربية المجاورة لاسرائيل والدول العربية عموما مهمة يتولاها الاسرائيليون وتدخل في نطاق واجباتهم . اننا نقوم هنا، اذا صح التعبير، على تنفيذ " مبدأ مونرو" خاص بالشرق الاوسط ان القرار الذي اتخذناه بهذا الخصوص منذ عشر سنوات (اي منذ ١٩٤٨) قد ادى الى الاستقرار والسلام بدلا من الخوف ". وفي كانون اول (ديسمبر) سنة ١٩٦٦ قال ليفي اشكول في رسالة بالراديو ان سياسة اسرائيل منذ سنة ١٩٥٨ (أي منذ الوحدة..) ان تحول ولو بالقوة دون أي تغيير يحدث في الوضع القائم للدول العربية ". وفي شباط (فبراير) سنة ١٩٦٧ قال ابا ايبان في تصريح ادلى به في لندن : " تخب ان يكون واضحا ان مصير المنطقة العربية لا يمكن ان يكون الوحدة ، بالعكس انه الاستقلال القائم على التجزئه " .

وهكذا تثبت الممارسة- ممارسة المعركة ضدنا- ان القوى المعادية قد غزت فلسطين مقدمة لغزو مزيد من الاراضي العربية لاقامة دولة يهودية وظيفتها ان تحول دون الوحدة العربية الشاملة كهدف استراتيجي لتلك القوى المعادية.

وهذا يعني ان طبيعة معركة تحرير فلسطين التي تفرض التحام الجماهير العربية تحتم ان يكون التحامها من اجل الوحدة كهدف استراتيجي للقوى العربية. وبهذا تقدم طبيعة المعركة الدليل على صحة الموقف القومي من العلاقة بين الوحدة وتحرير فلسطين . اذا كان هذا هو الحل الصحيح، فما الذي يحول دونه؟

أولاً: وقبل كل شيء ، عدم وفاء القوى القومية بمسؤولياتها ، فلو ارادت الوفاء لما حالت أية قوة على الارض دون أن تلتحم في قوة مناضلة لتحرير فلسطين واقامة دولة الوحدة .

ثانيا: الاقليمية العربية ، والاقليمية كنقيض للقومية تقوم على أساس أن لكل اقليم عربي تكوين اجتماعي (مجتمع) قائم بذاته مستقل بمصيره . ولما كان الاستقلال علاقة ذات طرفين أو اكثر (الاستقلال بالذات عن الغير) فان دلالة الاقليمية تتجاوز أي اقليم لتصبح علاقة قائمة على تبادل الاعتراف بتجزئه الوطن العربي تجمع الاقليميين في كل مكان، حتى الذين لا ينتمون الى دولة عربية، لتضعهم جميعا في مواجهة الشعب العربي في موقف مضاد لوحدته القومية. وتتجسد هذه الاقليمية في الموقف الاقليمي من المشكلات العربية ، ومن معركة تحرير فلسطين بوجه خاص، لان الاقليمية متصدية فعلا للمعركة دفاعا عن فلسطين أو دفاعا عن الاجزاء التي احتلت بعد ١٩٦٧ ولكن من موقف اقليمي .

وقد قلنا دائماً ونقول الآن ان الاقليمية فاشلة .

ولسنا نحتكم لتجربة الفشل في السنين الماضية، لان هناك من يتوهمون ان تغيير القيادات الاقليمية قد يكون سببا للنصر . وذلك من اوهام الاقليمية . لان فشل الاقليمية كامن في ذاتها مهما تكن نوايا قادتها . ففي معركة تحريرفلسطين مثلاً، تفتقدالاقليمية (غير الفلسطينية) حتى مبررات القتال . ان استقلال الدول الاقليمية ذاتا ومصيرا تخردها من أي حافز للقتال من اجل تحرير فلسطين .

لسبب بسيط هو ان فلسطين تقع خارج حدود الدول الاقليمية المستقلة ذاتا ومصيرا . واكثر الاقليميين امانة هم الذين يعترفون بهذا ويبحثون عن مخرج لاسترداد ما ضاع من ارضهم ثم يلقون مسؤولة تحرير فلسطين على شعب فلسطين . واذا قيل ان اسرائيل تمثل خطرا على الدول العربية فان المسألة- بمنطق الاقليمية- تكون كيف تؤمن وجودها من هذا الخطر. وهو ممكن ولو بالمساومة على ارض فلسطين ذاتها، ولو بقبول حماية واحدة أو اكثر من الدول . كل هذا ممكن بدون حاجة الى تحرير فلسطين ، واذا لم يكن ممكنا فان الاقليميين سيقاتلون دفاعا عن أرضهم ان استطاعوا، ولكنهم لن يصلوا أبدا - ولو استطاعوا- الى حد دخول معركة تحرير فلسطين .

هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى فان " الاقليمية " المستقلة ذاتا ومصيرا تعني اولا استئثار كل دولة عربية بالجزء الذي تقوم عليه فهي تغتصبه من الامة العربية. وتعني ثانيا حرمان الشعب العربي فيها من حقه في الارض العربية خارجه فهي تحبسه فيه وبهذا تحول – "سلبيا واتخابيا – دون التحام الجماهير العربية في قوة موحدة لتحرير فلسطين واقامة دولة الوحدة . وبهذا لا تخدم الا الغزو الصهيوني لفلسطين . ولهذا عندما يتحدث الاقليميون عن تحرير فلسطين لا يصدقهم أحد ويسخر منهم العالم كله. والعالم على حق لان الاقليمية المستقلة بمصيرها عن فلسطين تكون غير منطقية عندما لا تترك فلسطين لمصيرها المستقل . ان على الشعب العربي في كل مكان ان يفلت من شراك التضليل ولو احتراما لارواح الشهداء من ابنائه الذين راحوا ضحية التضليل الاقليمي . والحقيقة اننا ما دمنا متفقين على ان التجزئه قد سهلت غزو فلسطين ، فيجب ان نعرف ونعترف بان الغزو الصهيوني لفلسطين قد بدأ واتسع وما يزال قائما في حماية الاقليمية العربية التي تجسد تلك التجزئه. واذا كنا متفقين على أن الاقليمية العربية مشتبكة في صراع ضد الصهيونية دفاعا عن استقلالها ، فيجب ان نعرف، ونعترف بان هذا الاستقلال لا يعني انها ستخوض معركة تحرير فلسطين، بل يعني انها طالما بقيت في الوطن العربي فستحول، بكل الطرق، من– اول المغالطة اللفظية الى اخر التصفية الجسدية، دون التحام القوى القومية لدخول معركة تحرير فلسطين، أي ان استقلالها ذاته يحول دون تحرير فلسطين . وانها تخب ان تسقط لتقوم دولة الوحدة حتى تتحرر فلسطين .

أما الاقليمية الفلسطينية فلها مصلحة مؤكدة في تحرير فلسطين ولا شك في انها– ستقاتل ما استطاعت لتحرير فلسطين، ولكن الاقليمية ستخذلها . الاقليمية فيها والاقليمية خارجها. هذا لا شك فيه. ان شعار الاستقلال عن الدول العربية بمعركة تحرير فلسطين . يتضمن حتما استقلال الدول العربية عن معركة تحرير فلسطين . وليس صحيحا ان يقال انه مع ذلك لا يعني الاستقلال عن الجماهير العربية ولا يحول دون التحامها في معركة تحرير فلسطين . لان مجرد الدعوة الى التحام الجماهير العربية يعني دعوتها الى كسر القيود الاقليمية وهو أمر يمس صميم وجود الدول الاقليمية ويتناقض مع استقلالها عن فلسطين واستقلال فلسطين عنها. ان كان هذا تكتيكا فهو تكتيك فاشل لانه ينطوي على

مغالطة مكشوفة. وكل تكتيك " ناجح تخب ان يكون منضبطا عقائديا واستراتيجيا والا فهو مغامرة أو مقامرة .

(٧)

الحل القومي، اذن، هو الحل الصحيح لمشكلة تحرير فلسطين . فهل هناك موضع في هذا الحل لمشكلة الاقامة في فلسطين المتحررة . تلك المشكلة التي يقدمون لها صيغة فلسطين المسماة "ديموقراطية " حلا يرضي- فيما يقولون - الرأي العام العالمي؟... ان حلها القومي واضح وصريح . اذ بمجرد ان ننسى التمييز الديني والعنصري تقدم لنا " القومية" الحل الصحيح . فالقومية لا تقبل . الاستقلال الاقليمي لفلسطين عن الامة العربية. وفلسطين الاقليمية فاشلة من الان في حل مشكلة الاقامة فيها . فهي " دويلة " يواجه فيها مليونان من المجنى عليهم مليونين من الجناة حول جسم الجريمة : الدار المهجورة وقد سكنت، والارض المتروكة وقد زرعت، والاموال المنهوبة وقد اصبحت اموال الاخرين . ثم يقال لهم لا تذكروا ما كان وعيشوا " ديموقراطيين " كأن الديموقراطية تعويذة سحرية تطهر النفوس بأمر من القائلين . ان فلسطين مهما تكن ارض السلام- ستضيق بمن فيها و تنتهي حرب التحرير لتبدأ الحرب الاهلية في ارض فلسطين . القومية لا تقبل الا دولة الوحدة ودولة الوحدة اكثر رحابة من فلسطين . وفي دولة الوحدة مكان لكل الذين يريدون ان يعيشوا آمنين . هذا من ناحية.. ومن ناحية أخرى فان للامة العربية، أبناء من اليهود في فلسطين المحتلة وفي اماكن كثيرة من الارض . اولئك العرب اليهود. انهم يحملون لسبب أو لاخر الهوية الاسرائيلية أو هويات أخرى اجنبية . وهم لسبب أو لاخر قد انتقلوا الى فلسطين أو غادروا الارض العربية الى اماكن أخرى . كل هؤلاء عرب بصرف النظر عن معتقداتهم الدينية . ولكل هؤلاء حق قومي في ان يقيموا في رحاب أمتهم وعلى وطنهم العربي في فلسطين أو في غير فلسطين . ولكل هؤلاء حق في أن تكون دولة الوحدة الاشتراكية الديموقراطية دولتهم القومية التي تحميهم ضد التعصب وتوفر لهم الامن واسباب التقدم الاجتماعي . وكل هؤلاء مطالبون بان يعبروا عن ولائهم لامتهم، وان يرتفعوا بوعيهم الى مستوى المسؤولية القومية، وان يعرفوا ان ارض فلسطين هي أرض أمتهم العربية، وان لهم حق الاقامة فيها سواء كانوا فيها من قبل، أو كانوا وافدين اليها من اقطار عربية أخرى . وان من حقهم ان يعودوا اليها، أو الى أي مكان من الوطن العربي ان كانوا قد غادروا ارضهم العربية. بل انهم في القومية سواء مع اخوتهم العرب الذين اكرهوا

على مغادرة فلسطين، لا فضل لاحد منهم على الاخر الا بقدر ما تخسد فكرا ومسلكا ولاءه القومي لامته العربية. وحتى الذين تورطوا منهم فوجدوا انهم في مواقع الخيانة لامتهم ، ويقتلون اخوتهم العرب طاعة لسادتهم الصهاينة فان جزاءهم سيكون متعادلا مع ما كان لهم من حرية في الاختيار، وعلى ما يكون لهم من موقف يختارونه في الصراع العربي ضد الغزو الصهيوني . ولكنهم في كل الاحوال لن يكرهوا على مغادرة ارضهم العربية ولن يفتقدوا حماية دولة الوحدة .

أما الذين خانوا وطنهم فهجروها، وجاءوا غزاة للوطن العربي فلا مكان في الارض العربية وعليهم ان يلحقوا بأممهم حيث كانوا ولسنا مطالبين ان ندفع ثمن الخيانة او ان نقدم لهم مكافأة على العدوان .

ذلك هو الحل السلمي الوحيد المقبول قوميا .

وهو حل لا نبتكره نفاقا لدفاع السلام . انما نقدمه دليلا على سهولة الاهتداء الى الحلول السلمية الصحيحة من الموقف القومي العقائدي لأنه الموقف الصحيح . وليس أدل على أنه الحل السلمي الصحيح من ان المهاتما غاندي كان رمزا خالصا للسلام الانساني مع انه لم يكن عربيا قوميا قال غاندي في ١٤ تموز (يوليو) سنة ١٩٤٦:

" ان فلسطين للعرب بذات المعنى الذي تعتبر فيه انجلترا للانجليز وفرنسا للفرنسيين . انه لخطأ بيّن، وامر غير انساني، ان يفرض اليهود على العرب. ان ما تخري في فلسطين اليوم لا يمكن ان يوجد له مسوغ من اي قانون اخلاقي للسلوك.. انها لجريمة ضد الانسانية ان يقبر العرب الاعزاء لكي يتخذ اليهود كل فلسطين او جزءا منها وطنا قوميا لهم . ان التصرف الامثل هو الاصرار على معاملة اليهود معاملة عادلة في اي مكان ولدوا ونشأوا فيه "

ونحن باسم القومية العربية نصر على معاملة اليهود العرب معاملة عادلة في وطنهم العربي وما على الامم الاخرى الا ان توفي بمسؤولية السلام فتحمي أبناءها اليهود من التعصب ضد السامية. وبهذا تحل المشكلة ويسود السلام .

ان دعوتنا القومية اذن دعوة سلام في جوهرها. وأننا لمسؤولون قوميا عن تحرير العرب اليهود من القهر العنصري المفروض عليهم في ارض فلسطين . ومسؤولون قوميا عن

عودة العرب اليهود الذين غادروا وطنهم العربي وتعويضهم عن اي عسف لم يحترم انتماءهم القومي للامة العربية. ولكنا غيرمسؤولين على اي وجه عن ارضاء التعصب الاوربى ضد اليهود او التعصب الصهيوني ضد البشر جميعا. بان نقيم للصهيونية دولة في ارضنا، سواء في فلسطين او حتى في الربع الخراب من الصحراء القاحلة. لا أحد يملك هذا ولا احد يستطيعه فان جنحوا الى السلم جنحنا. وان اصروا على البقاء اكرهناهم على العودة الى اوطانهم، ونعد لهم ما نستطيع من قوة.

أهي عودة الى شعار القائهم في البحر؟

ان هذا لا يتوقف علينا، ولكن على الطريقة التي يختارونها للجلاء عن الارض العربية. وعلينا ان نكف عن النفاق باسم الانسانية فان الحرب ليست مباراة رياضية بل هي صراع وحشي ومجزرة بشرية. واذا كان ثمة من يدعي الانسانية نفاقا فليبحث اولا عن المسؤول عن المجازر البشرية والعرب لم يكونوا ابدا مسؤولين .

في اواخر الحرب الاوربية الثانية كانت اغلبية اليهود الالمان في سجون النازية. وكانت النازية في مأزق اقتصادي وعسكري لا يمكنها من الابقاء عليهم . فاتفقت النازية والصهيونية في "مفاوضة مباشرة جرت في سويسرا على ترحيلهم من المانيا. وعرض الامر على الحلفاء، فاحالوه الى لجنة برئاسة اللورد موين الانجليزي . ثم استقر الرأي على انه بالرغم من مخاطر الابادة الجديدة التي تعدها النازية للتخلص منهم الا ان ترحيلهم من المانيا سيخفف عنها بعض متاعبها ويعوق انتصار الحلفاء وقرروا جميعا ترك اليهود للموت فأبيدوا بالوحشية التي نذكرها. ونذكر ايضا ان الحركة الصهيونية طاردت من اجل هذا اللورد موين حتى قتلته في شوارع القاهرة.

انها الحرب والصهاينة أول من يعلمون هذا ويعاملوننا وفقا له.

فاذا كان واحد من العرب قد قال – اخيرا– اننا سنلقى الاسرائيليين في البحر فليتذكر المنافقون ان الزعيم الصهيوني وايزمان قد قال : " لا أذيع، سرا اذا قلت اننا اتفقنا مع بريطانيا على تسليمنا فلسطين خالية من العرب قبل نهاية الانتداب " وان الزعيم الصهيوني جابوتنسكي قال : " ان فلسطين تخب ان تكون لليهود أما العرب فلهم الصحراء . ان اتباع سياسة اللين مع العرب للتوصل الى اركان الوطن القومي اليهودي في فلسطين ثم اجلاء العرب عنها تدرتخياً مع الزمن سياسة مملة يطول شرحها ، لأنه أصبح معروفاً لدى

العرب ماهي الغايات التي يسعى إليها اليهود ولذلك بات من الضروري مجابهة العرب بالأمر الواقع وافهامهم ضرورة الجلاء إلى الصحراء " . وأن الزعيم الصهيوني اسرائيل زانكويل قال : " ان فلسطين وطن بلا شعب فيجب أن تعطى لشعب بلا وطن ، وواجب اليهود في المستقبل أن يضيقوا الخناق على سكان فلسطين العرب حتى يضطروهم إلى الخروج منها " . وأن الزعيم الصهيوني سيملانسكي قال : " ان فلسطين تخب أن تكون وطناً للشعب اليهودي وأنه من الممكن نقل أهل فلسطين العرب إلى الأقطار العربية المجاورة " . وان الزعيم الصهيوني مناحم بيغن قال " ان مذابح الأسر العربية عمل رائع من أعمال الاستراتيجية العسكرية " . وان الزعيم الصهيوني بن غوريون قال : " علينا ان نتلقن الدرس بأن الهزائم العسكرية في حد ذاتها لا جدوى من ورائها ما لم يعقبها اجراء فعال وعلينا أن نستخدم الانتصارات العسكرية كأساس للتوطن السكاني الذي لايمكن إغفاله " وانه فيما بين يومي ١٩٤٨/١١/١١ و ١١/١٧ / ١٩٦٦ أصدرت الجمعية العامة للامم المتحدة ثمانية عشر قراراً بعودة الشعب العربي إلى فلسطين فقال الزعيم الصهيوني ابا إيبان " حتى لو صوتت الأمم المتحدة بنسبة ١٢١ إلى واحد فلن نقبل قرارها " .

فهل فقدوا بهذا كثيراً من الرأي العام العالمي ؟

لنكف اذن عن " النفاق " باسم الانسانية فإن النفاق لايخدع أحداً ان الاوروبيين الذين يريدون كسبهم نفاقاً هم الذين ألقوا باليهود في الأفران الموقدة وليس في البحر . وهم الذين أهلكوا من أنفسهم خمسين مليوناً في حربين خلال ربع قرن دفاعاً عما يعتقدون انه حق . وتعلموا من كل هذا ان دعوة الحق التي تهرب من حلبة الصراع دفاعاً عنه دعوة منافقة .

ولنقلها صريحة قاطعة : إذا فرض علينا العالم أن نختار بين ان يذهب العرب إلى جوف الصحراء ، أو ان يذهب الصهاينة إلى أعماق البحر فليذهب الصهاينة إلى أعماق البحر ، ولن نكون المسؤولين ، بل العالم هو المسؤول .

محاضرة القيت في نادي المحامين في عمّان (الاردن) يوم ١٠ آذار (مارس) ١٩٧٠ .